مقاومة القبائل الصحراوية المغربية للاحتلال الفرنسي في بداية القرن العشرين

م.م. عمر موفق محمد
كلية الطب / الجامعة المستنصرية

المقدمة

الهدف من هذه الدراسة، هو إلقاء نظرة عامة وموجزة، تضع مقاومة القبائل الصحرواية في إطارها الوطني الشامل، لأن هذه الحقيقة تجاهلتها الدراسات الأجنبية، التي وإن أشارت إلى تبادل الدعم بين أبناء المغرب، أي بين الشمال والجنوب، فبدافع الضغط على الدولة المغربية آنذاك لتحقيق أهداف المحتلين في فصل أجزاء المغرب ووضع الحواجز بين المغاربة في الشمال والوسط والجنوب الصحراوي.

وبادئ ذي بدئ، يجب أن ننبه إلى الملاحظات الآتية :

١- إننا سنقتصر على مقاومة الاحتلال الفرنسي، لأن معظم معارك الصحراء جرت ضد الفرنسيين.

٢- سنقتصر على أشهر المعارك، ولن نتعرض لكل أسماء القبائل لأن كل القبائل الصحراوية، سواء المنتمية اليوم للدولة الموريطانية أو المنتمية للوطن الأم، المغرب، كلها شاركت في الجهاد ضد المحتلين وقدمت التضحيات الكبيرة

في سبيل الدفاع عن استقلال المغرب ووحدته إلى حدود ١٩٣٤، حيث تمكن الاحتلال الفرنسي من إخضاع المغرب.

٣- إننا إذا قلنا جنوب المغرب فإننا نقصد به الجنوب الصحراوي إلى حدود السينغال، انسجاما مع الحقائق التاريخية، ما دمنا نتحدث عن الفترة الممتدة من نهاية القرن الماضي إلى ١٩٣٤، مثلما نتحدث اليوم عن جنوب المغرب الذي ينتهي عند الحدود الموريطانية.

٤- ولقد قسمنا هذه الدراسة إلى مقدمة، ومرحلتين، تعرضنا في المرحلة الأولى لفشل مشروع التدخل السلمي الذي بدأه الفرنسيون مبكرا انطلاقا من السينغال، ثم عرضنا أهم الأحداث التي ميزت مقاومة القبائل الصحراوية ابتداء من سنة ١٩٠٥ التي كانت سنة متميزة في تاريخ المغرب.

من أخطر ما تمنى به الشعوب في تاريخها هو تشويه مبادئها النضالية، وطمس مظاهر توحدها ووحدة أهدافها وآمالها وتطلعاتها. وإذا كان دعاة الاستعمار والهيمنة، قد بذلوا أكبر الجهود الفكرية والمادية، لزرع أسباب الفرقة بين عناصر الشعب الواحد، ليسهل عليهم التغلب انسجاما مع الموجة الاستعمارية التي كانت تتحكم فيها نواميس التوسع الإمبريالي، فإن الشعب المغربي كان في مقدمة الشعوب التي تعرضت للتفتيت والتمزيق بهدف التغلب على صموده ومقاومته.

ولقد أبان المغاربة خلال تاريخهم الطويل، عن وحدة شاملة كان سداها الإسلام ولحمتها التاريخ المشترك بمآثره ومحاسنه ومساوئه ومآسيه، ميدانها أرض معطاء، جللها خالقها بأكاليل الجمال الطبيعي، وعقود التنوع البيئي. فما شئت

من جبال شاهقة خضراء وسهول خصبة فيحاء، وصحاري ممتدة، تحتضن جنات تجري من تحتها الأنهار تغري بحب الحرية الحرية والشجاعة والتواصل الإنساني.

إن مآثر الشعب المغربي الوحودي، وغناه الطبيعي، كل تلك المزايا كانت سندا ودافعا للصمود في وجه أعتى موجات الاحتلال الأجنبي منذ عهد رومان إلى عهد الاستعمار الحديث.

هذه مميزات أصيلة للتكامل، قلما ينعم بها بلد مثلما هو حال المغرب، ولهذا حاولت الأوساط الاستعمارية، بكل ما أوتيت من خبرة وقوة وتنظيم وعلم، أن تعزل المغاربة عن بعضهم، حتى لا يتبادلوا "الدعم والعون، وحتى يئسوا من تحقيق آمالهم في الحرية والاستقلال، كما حاولت أن تطمس كل ما يثير الوعي والحمية الدينية وتنشر كما يبعث على اليأس والإحباط. وهكذا جزئ المغرب إلى مناطق نفوذ إسبانية ودولية وفرنسية وإلى مناطق أخرى قالوا عنها إنها أرض خلاء.

وعن مقاومة المغاربة تحدثوا عن مقاومة سهلية وأخرى جبلية وعن مقاومة ريفية وبربرية وصحراوية غافلين عن الروابط الدينية والوطنية التي كانت تدفع المجاهدين إلى تبادل العون والنصح والتشجيع تقاسم الآلام والآمال في طرد الغزاة الأجانب.

وإذا كان من الطبيعي أن تعمد الأوساط الاستعمارية إلى الدس وإلى تشويه الحقائق لإنجاح مخططاتها، فإن الأمر الشاذ هو ان يتحدث المغاربة كما تحدث الأجانب عن مقاومة الشعب المغربي وكأنها حركات مفصولة العرى

المادية والثقافية والروحية. وإن الحديث عن مقاومة أي إقليم من الأقاليم أو أي قبيلة من القبائل ينبغي رؤيته متصلا بمحيطه البشري المغربي الشامل.

إن من يجتهد ليقف في صفوف المجاهدين المغاربة، الذين قارعوا الاحتلال الاستعماري سيعرف – بالاعتماد على التحقيق التاريخي العلمي – بأن جهاد المغاربة في الجنوب الصحراوي كان يستمد العون والدعم المادي والمعنوي من إخوانهم في الشمال، سواء على المستوى الرسمي أو على المستوى الشعبي. إن هذه الحقيقة واضحة وثابتة ومؤكدة. لأن الأمر كان يتعلق باحتلال أجنبي نصراني لأرض مغربية مسلمة.

وهكذا، لا بد لنا، من التأكيد في النهاية، على أن عمليات الجهاد التي كانت القبائل الصحراوية تنفذها ضد القوات الفرنسية في أدرار والترارزة وتكانت وفي باقي الأقاليم الصحراوية كالحوض والساقية الحمراء ووادي الذهب، كانت تنظم بأموال الشعب المغربي وأسلحته ودعمه، وكانت لشيوخ القبائل ومقدميها وضمانها الحرية الكاملة في التخطيط والتنفيذ انسجاما مع المميزات المحلية، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فكم من عقبة وضعها المغاربة أمام المحتلين في شمال البلاد وعرقلوا بها أهدافهم، كان العنصر الصحراوي أساسيا فيها.

ويكفي دليلا، على ترابط وتلاحم المغاربة في جهادهم، أن خطط الاستعمار لم تكن تنجح إلا بعد التنسيق بين جيوش الاحتلال في الشمال والجنوب، وأن نجاح المحتلين في إنهاء جهاد القبائل الصحراوية لم يتم إلا بعد أن تمت السيطرة على الشمال في سنة ١٩٣٤.

أولا : حركة الجهاد في المرحلة الأولى ١٩٠٥-١٩١٣.

١- فشل مشروع كوبولاني :

بعد مسلسل طويل من "التدخل السلمي" الذي بناه المستعرب الفرنسي على الدسائس واستغلال المنافسات بين الفرق القبلية، وبين زعماء الدينيين والسياسيين، تمكن الفرنسيون من بسط نفوذهم على منطقة الترارزة والبراكنة بين ١٨٩٨ و ١٩٠٤. ولما حاول (كوبولاني) مد الاحتلال الفرنسي إلى إقليم تكانت صادف مقاومة عنيدة تزعمها أمير المنطقة الشيخ (بكار ولد سويد)، شيخ قبائل إدواعيش وزعيم الإقليم منذ ١٨٣٦. فقد جمع هذا المجاهد الصحراوي الكبير حوله كل المعارضين لسياسة التوسع الفرنسي شمال نهر السنغال، وحارب المحتلين إلى أن سقط شهيدا في أبريل (نيسان) ١٩٠٥[١].

والملاحظ أن هذه السنة ١٩٠٥، التي جعلناها بداية للحديث عن جهاد صحراويين، تعد ذات دلالة عميقة في تاريخ المغرب، فلقد توترت العلاقات الفرنسية المغربية بشكل كبير خلالها وظهرت عواقب ذلك التوتر في الضغوط العسكرية التي مارسها الفرنسيون في الشمال والجنوب.

وغير خاف أن توتر العلاقات الفرنسية سنة ١٩٠٥، يرجع إلى ما أعقب الاتفاق الودي بين أنجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤ من تطورات. فقد اتهم المغاربة الفرنسيين والإنجليز بالتصرف في مصير الشعب المغربي دون استشارته وترتب

[١] نور الدين أسريدي، مساهمة في دراسة تاريخ موريطانيا، رسالة دبلوم دراسات عليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ١٩٩٠،ص٣٤.

عن ذلك رفض المغرب لكل تعاون منفرد مع فرنسا، وأفشل السلطان مولاي عبد العزيز مشروع "الإصلاحات" الذي أرادت فرنسا بواسطة فرض حماية مبكرة على المغرب[١].

ومن مظاهر التوتر في علاقات المغرب مع فرنسا دعوة المغرب لعقد مؤتمر دولي، وتأييد ألمانيا لدعوته بزيارة الإمبراطور الألماني لمدينة طنجة في مارس (آذار)١٩٠٥.أما الرد الفرنسي، فقد جاء متنوعا : صراع دبلوماسي ضد ألمانيا، ضغط عسكري ضد المغرب ظهر في الحدود الجزائرية المغربية، وفي تشجيع الثائر (بوحمارة) في المغرب الشرقي وفي تنشيط التدخل العسكري شمال نهر النهر. أمام هذا التهديد الواضح لمصير المغرب كدولة مستقلة دعا سلطان المغرب شعبة للاتحاد وبذل العون للمخزن، بهدف المحافظة "على توفر القوة الإسلامية وأسبابها" وبين له الأضرار التي ستصيب البلاد والعباد إذ لم يبادر المغاربة للإتحاد والتعاون[٢].

---

[1] علال الخديمي، "مجلس الأعيان ومشروع الإصلاحات الفرنسية بالمغرب سنة ١٩٠٥" في ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي خلال القرن التاسع عشر، ١٩٨٣، نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ١٩٨٦.

[٢] رسالة من مولاي عبد العزيز، إلى القبائل مؤرخة في ٢٧ ربيع الثاني ١٣٢٣ الموافق، ١ يونيو(حزيران) ١٩٠٥. ينظر: علال الخديمي، التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب ١٨٩٤-١٩١٠. نشر إفريقيا الشرق، الدارالبيضاء، الطبعة الثانية،(المغرب ،١٩٩٥) ص ٥٧- ص٦٠.

وإذا اعتمد المركز على الدفاع السياسي أو "سياسة الدفاع" فإن الشعب حمل السلاح وانتشرت بينه الدعوات المتكررة للجهاد ولقد كان اغتيال زعيم مسلسل "التدخل السلمي" في الصحراء كوبولاني في ١٢ ماي(آيار) ١٩٠٥، من طرف الشريف ولد سيدي مولاي الزين إعلانا بارزا بفشل مشروع التدخل السلمي المزعوم في جنوب المغرب وبداية لحرب طويلة بين المغاربة من جهة، وجيوش الاحتلال الجنبية من جهة أخرى.

٢- تصعيد المقاومة الصحراوية بتشجيع من المخزن :

وقد تدخل السلطان مولاي عبد العزيز لمساعدة القبائل الصحراوية لما اتضح عزم الفرنسيين إلى توسيع احتلالهم، وهكذا أرسل وفدا مخزنيا اتصل بوفود قبائل الترارزة، والبراكنة وتكانت والحوض ووادي الذهب والساقية الحمراء، وعقد الاجتماع في السمارة بمقر الشيخ ماء العينين الذي أصبح هو المنسق لحركة الجهاد في الصحراء مع خليفة السلطان مولاي إدريس بن عبد الرحمان الذي تولى قيادة المجاهدين[١].

وقد حاصر المجاهدون بقيادة مولاي إدريس، الطلائع الأولى للفرنسيين في المراكز المتقدمة بتكانت وأنذروهم بضرورة إخلاء تمانت. ثم نشبت معركة شديدة بين الجانبين في شهر نوفمبر(تشرين الثاني) ١٩٠٦ تسمى معركة النيملان، كبد فيها الصحراويون قوات الاحتلال خسائر فادحة، وإثر هذه المعركة

[1] علال الخديمي، التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب ،ص٦٢

شدد المجاهدون الحصار على مركز تجيكجا مدة شهر. ثم تخلوا عن الحصار بعد وصول قوات فرنسية من السنغال مزودة بالمدفعية والرشاشات[٢].

فورة الجهاد تعم المغاربة من المتوسط إلى نهر السنغال ١٩٠٧-١٩٠٩ :

أ- ظرفية سنة ١٩٠٧ :

تعرض الذين درسوا الاحتلال الفرنسي للأقاليم الصحراوية لظرفية الجهاد سنة ١٩٠٧، فأشاروا إلى هدوء في المقاومة. وذكروا أن سبب هدوء عمليات الجهاد يرجع بالدرجة الأولى إلى تراجع المجاهدين من أدرار نحو الشمال وإلى تردد كثير من القبائل الصحراوية في حمل السلاح ضد الفرنسيين[٣].

والواقع أن هدوء ١٩٠٧، يرجع بالدرجة الأولى إلى الضغط الذي مارسته الحكومة الفرنسية على المخزن المغربي. وقد ظهر ذلك الضغط بوضوح عندما دخلت القوات الفرنسية لمدينة وجدة واحتلها في ٢٩ مارس(آذار) ١٩٠٧. فبعد هذا الاحتلال الذي وقع بمناسبة مقتل أحد الفرنسيين بمدينة مراكش، تقدمت فرنسا بمطالب تعجيزية للمغرب مقابل الجلاء عن وجدة. وقد جاء في مقدمة تلك المطالب، مطلب سحب الخليفة السلطاني من الأقاليم الصحراوية، والتوقف عن تحريض القبائل الصحراوية على الجهاد، ومنع إرسال الأسلحة إلى الشيخ ماء العينين.

---

[٢] نور الدين أسريدي، **المرجع السابق**، ص ٢٤٠-ص٢٤١.

[٣] علال الخديمي، التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب ، ص. ٥٧- ص٦٠.

حاول المخزن أن يصمد في وجه هذه المطالب أو التخفيف منها، لكنه اضطر في النهاية إلى قبولها وهو يعلم صعوبة تنفيذها، لأن نفوس المغاربة كانت محرضة ضد الاحتلال الفرنسي. لقد تخوف المخزن من تصعيد الاحتلال عبر الحدود الجزائرية، ورغب في جلاء القوات المحتلة عن مدينة وجدة، ولهذا أصدر أمره إلى الشيخ ماء العينين بإرسال مولاي إدريس بن عبد الرحمان إلى فاس للتشاور معه وبتهديء الوضع بالصحراء ريثما تنتهي المفاوضات مع الجانب الفرنسي بالطرق الدبلوماسية[١].

ومما جاء في رسالة السلطان إلى الشيخ ماء العينين :

وبعد، فإن الدولة الفرنسوية كانت تشتكي بأمور من جملتها، ما يدعونه من الأضرار اللاحقة بهم من رعيتنا السعيدة في نواحي الحدود بالصحراء وغير ذلك، ولما حدثت حادثة الطبيب الفرنسوي القتيل بمراكش إثر حوادث أخرى بالقتل والجرح لبعض الفرنسويين في غيرها من المدن، ظهر منها تشديد في طلب الإنصاف لها في كل ما تشتكي به ...[٢]

---

(1) علال الخديمي، "الشيخ ماء العينين ومقاومة التدخل الفرنسي بالمغرب ١٨٨٤-١٩١٠". مجلة دراسات، كلية الآداب بأكادير ١٩٨٧، العدد الأول، ص. ٣٧.

(٢) انظر النص الكامل للرسالة في كناش الخزانة العامة رقم د ١٦٩٥ وهي مؤرخة ب ٨ ربيع النبوي ١٣٢٥ الموافق ل ٢١ أبريل (نيسان)١٩٠٧. وجدير بالذكر أن الفرنسيين زادو من ضغطهم على المغرب مع الإسبان. ولهذا أرسلت الدولتان سفنا حربية للشواطئ المغربية لمنع تهريب السلاح إلى المغاربة في الجنوب خاصة.

ينظر: نور الدين بلحداد، التسرب الإسباني إلى شواطئ الصحراء المغربية (١٨٦٠-١٩٣٤)، دبلوم دراسات عليا، كلية الآداب بالرباط، ١٩٩٤، ص ١٨٥-ص١٨٦.

هكذا إذن فسبب هدوء الوضع خلال سنة ١٩٠٧ شمال نهر السنغال يرجع إلى ما كان من تطورات في عاصمة المغرب على أثر احتلال وجدة. وكأن هذا الاحتلال لم يكف الفرنسيين، لما رأوا صمود المغرب، فعمدوا إلى قبلة الدارالبيضاء وشرعوا في احتلال بلاد الشاوية منذ غشت(آب) ١٩٠٧. وهكذا أرغموا محزن مولاي عبد العزيز على "التعاون" معهم. وبذلك قضوا على مصداقيته لدى الشعب، الأمر الذي أدى إلى بيعة خليفة السلطان وأخيه مولاي عبد الحفيظبهدف إخراج المحتلين من الأراضي المغربية[١].

ب- بيعة مولاي عبد الحفيظ وتصاعد حركة الجهاد :

كتب الضابط الفرنسي (Gillier) يقول : "بعد هدوء سنة ١٩٠٧، أعقبته الفترة الأكثر اضطرابا في احتلالنا (للصحراء)،إن عودة السرية التي ذهبت تطلب المساعدة من سلطان المغرب جاءت معها إلى أدرار عناصر محبة للحرب ومسلحة جيدا، زادها تحريض ووعظ مرابط سمارة حدة وحماسا. وكانت توافقها جماعة من التلاميذ يتزعمها الشيخ حسانة بن ماء العينين الذي كلف بتنظيم القتال والذي سيؤدي مهمته بكثير من الذكاء والحنكة إن هذه الجماعة المشاغبة جعلتنا في حالة استنفار طيلة ما يقرب من سنة"[٢].

[١] علال الخديمي، التدخل الأجنبي، مصدر سابق، ص ٣١٧- ص ٣٢٠.

[٢] جيليي ،التوغل في موريتانيا ،ترجمة محمد ولد حمينا ،دارالضياء ، المغرب ،(١٩٩٠)، ص١٦٥

الواقع أن وفرة الجهاد التي صاحبت بيعة سلطان الجهاد بفاس عمت المغرب من أقصاه إلى أقصاه. وهكذا نشبت المعارك في حدود المغرب الشرقية "بني يزناسن" وسواحل الغربية "الشاوية" وخاصة في الأقاليم الصحراوية.

وقد دفع حماس الجهاد الصحراويين، إلى بذل أقصى الجهود والتضحيات بهدف طرد المحتلين، فبين شهر مارس وديسمبر ١٩٠٨ تعرضت القوات الفرنسية بالصحراء إلى أكثر من ١٣٥ هجوما، وبلغ عدد القتلى حسب الروايات الفرنسية ١٤٢ جنديا وضابطا وأهم نتيجة لهذه الفورة الجهادية هي انتشار الإشاعات بقرب انسحاب الفرنسيس من الأراضي التي احتلوها[٣].

وتشير الدراسات الفرنسية إلى أن المغاربة ركزوا جهودهم في اتجاهين اثنين خلال هذه المدة :

أولهما : حماية أكجوجت بأدرار وكانت اهم نقطة متقدمة في الاحتلال.

ثانيهما : الوحدات العسكرية المهارية المتحركة، التي نظمت بتكانت بقيادة الضابط مانجان (Mangin)، الذي كان الصحراويون يقلبونه "بودرس" والذي اشتدت وطأته على المجاهدين بأدرار[١].

وقد توصل المجاهدون الصحراويون بعد معارك عديدة طاحنة، وبعد هجمات موفقة صادروا خلالها جمال القوات الفرنسية، وبعد ضربات متتالية لخطوط التموين وخطوط المواصلات، توصلوا إلى تحقيق الهدفين المشار إليهما.

---

[٣] بلحداد، مصدر سابق، ص. ١٩٠.

[١] "إن تأسيس المركز العسكري بأكجوجت في يناير ١٩٠٨ كان مناسبة لأولى خيبات أملنا" ينظر :جيليبي ،التوغل في موريتانيا، ص١٨٤.

قال جيليي (Gillier) : "إن المغاربة تمكنوا من تحقيق الهدفين الرئيسيين المحددين : تحطيم مركز أكجوجت العسكري المتقدم، والقضاء على قواتنا المتحركة"[٢].

ولإبراز هذه النتيجة علينا أن نروي ما حدث خلال معركة من المعارك العديدة. إن الأمر يتعلق بمعركة المعينن التي جرت وقائعها يوم ١٢ يونيو (حزيران) ١٩٠٨.

فقبل أن ينشب الصحراويون القتال مع القوات الفرنسية، بعثوا برسالة إلى الضابط الفرنسي مانجان يقولون فيها : "لماذا جئت إلى أرض الله هذه ... إن شهرتك تجاوزت حدود البلاد، لكننا لا نخافك، نريد ان نقاتلك بوجه مكشوف و بعدد مماثل، إنتم ١٢٠و نحن ١٢٠ وسنغلبهم بعون الله"[٣].

وقد هاجم المجاهدون والقوة الفرنسية المتحركة بقيادة مانجان وقضوا عليها نهائيا، ثم قطعوا رأس مانجان وأرسلوه مع أحد الرماة قائلين له : "اذهب الى النصارى وارهم ما صنعنا ببودرس"[١].

وهكذا كان لبيعة مولاي عبد الحفيظ كسلطان للجهاد، ومساندته للمجاهدين الصحراويين، أثر فعال عظيم في الانتصارات التي حققوها سنة ١٩٠٨ ضد القوات الفرنسية بالأقاليم الصحراوية الجنوبية، مثلما كان لتلك البيعة

---

[٢] انسحب الفرنسيون من أكجوجت تحت ضغط المجاهدين في ١٠ شتنبر ١٩٠٨. ينظر : م.ن ص. ١٨٧–ص١٩٢ .

[٣] م.ن ،ص ١٩٤–١٩٥

[١] جيليي ، مصدر سابق ، ص. ١٩٦.

من أثر في تشجيع حركة الجهاد بالشاوية. ولمحاصرة حركة الجهاد المغربية، مارست الأوساط الاستعمارية ضغوطا كبيرة على عبد الحفيظ، وامتنعت عن الاعتراف به إلا بعد التخلي عن الدعوة للجهاد. وقد قررت في الوقت نفسه سلوك نهج جديد في الاحتلال بالأقاليم الصحراوية.

ج- حملة كورو واحتلال أدرار ١٩٠٩ :

لما تبين للأوساط الاستعمارية بإفريقيا الغربية فشل العمليات العسكرية المحدودة جنوب المغرب أي في الأقاليم الموريطانية اليوم، قررت تهييئ حملة كبيرة وقوية لاحتلال أدرار أي بلاد شنقيط التي كانت مركزا رئيسيا للمقاومة الصحراوية وإبعاد القبائل المجاهدة نحو الشمال[٢].

اعتمدت خطة كورو، وهو ايضا الضابط الذي كلف بقيادة الحملة، على نهج خطط عسكرية وسياسية واقتصادية ماكرة، بهدف إرغام القبائل المجاهدة على الخضوع للاحتلال. هكذا تقرر احتلال الواحات والآبار وفرض غرمات كثيرة على سكان الواحات، خاصة من المواد الغذائية ومصادرة قطعان الماشية، وبها ثم النقل لتوفير احتياجات الجيش الغازي من الغذاء والمركوب وبالتالي سلب وسائل القوة والصمود من يد القبائل، وفي الوقت نفسه اتبع كورو خطة الحملات المتحركة أي نفس النهج الذي كان يتبعه الرحل، لكي يؤثر في القبائل المجاهدة مع بناء مراكز عسكرية ووضع قوات لحراستها. أما من الناحية السياسية فقد بحث قائد الحملة الفرنسية عن تكوين تحالفات سياسية، بهدف استغلال أطراف

[٢] بلحداد، مصدر سابق، ص. ١٩٥

من السكان ضد أطراف أخرى وكان الهدف من العمل السياسي هو محاولة تخريب الهياكل الاجتماعية القبلية من الداخل[١].

وبعد معارك عديدة خاضتها القبائل المجاهدة بقيادة سيدي أحمد ولد أحمد عيدة أمير أدرار، تمكنت القوات الفرنسية من احتلال مدينة أطار في يناير ١٩٠٩[٢] وقد مثل احتلال أطار ضربة مؤلمة لحركة الجهاد، لأن المدينة كانت عاصمة الإقليم ومركزا للدارة والتنظيم وتموين المجاهدين.

وبعد احتلال أدرار أصبحت منطقة وادي الذهب الملجأ الآمن لقبائل أدرار حيث كانت تتزود بالمؤن والسلاح، وتنسق عمليات الجهاد مع قبائل المنطقة.

وقد عرفت سنوات ١٩١٠-١٩١٢ فتورا نسبيا ف عمليات الجهاد وإذا كان احتلال الواحات وأماكن الرعي والآبار قد حرم القبائل الصحراوية من إمكانية التزود بالماء والغذاء بسهولة، ودفعها – أو دفع بعضها – إلى مهادنة المحتل والتعايش معه؛ فإن فتور عمليات الجهاد الصحراوي سنتي ١٩١٠-١٩١١ لا يجد تفسيره إلا بالوضع الذي كان يسود عاصمة البلاد، وما كان يمر به السلطان عبد الحفيظ من صعوبات خارجية وداخلية.

---

[١] محمد الشيخ الطالب اخيار، صفحات من دفاع المغاربة عن السيادة والوحدة الترابية ما بين ١٩٠٠-١٩١٣، نماذج من الصحراء المغربية؛ ندوة المقاومة المغربية ضد الاستعمار، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، اكادير، ١٩٩١، ص. ١٥٠- ص١٥١.

[٢] نور الدين أسريدي، مصدر سابق.، ص. ٢٦٦.

فعلى مستوى العلاقات المغربية الفرنسية، نلاحظ أن الفرنسيين شغلوا السفارة المغربية التي كان يقودها محمد المقري مدة طويلة في باريز. ورفضوا الجلاء عن وجدة وبلاد الشاوية والدار البيضاء. واشترطوا شروطا ثقيلة على السلطان مقابل إقراض المغرب لتصفية ديونه السابقة[٣].

وإذا تحدث الفرنسيون عن ضرورة التعاون معهم لحل مشاكل المغرب، فإن إنذارهم للسلطان في فبراير ١٩١٠ بضرورة إبعاد المدربين الأتراك من الجيش المغربي، وبضرورة الموافقة على اتفاقيات المخزن مع الحكومة الفرنسية، قد تبين منه عزمهم على إخضاع السلطان عبد الحفيظ لهيمنتهم. يتضح ذلك من الخطوة العسكرية التي أقدم عليها جيش الاحتلال بالشاوية في يونيو ١٩١٠، عندما تدخل في تادلا بهدف إلقاء القبض على الشيخ ماء العينين الذي كان في طريقه من تزنيت إلى فاس[١].

وهكذا ففي الوقت الذي كان الفرنسيون يتحدثون عن التعاون المزعوم مع السلطان، كانوا يخربون علاقاته مع شعبه. ويجعلون مهمة صموده مستحيلة.

وبالفعل فقد أثاروا قضية أخرى مع المغرب هي قضية زعير التي زادت في تأزيم العلاقات الفرنسية سنة ١٩١١. فمن مشروع احتلال قبائل زعير، تدخلت القوات الفرنسية لاحتلال عاصمة المغرب فاس في ماي ١٩١١، وبهذا

---

[٣] علال الخديمي، التدخل الأجنبي والمقاومة،ص٣٥٤.

[١] علال الخديمي، "الشيخ ماء العينين ومقاومة التدخل الفرنسي"، **دراسات**، عدد ١، ١٩٨٧.

الاحتلال فتحت الطريق لفرض الحماية سنة ١٩١٢ بعد اتفاق ألمانيا مع فرنسا في نونبر ١٩١١[٢].

وعلى الرغم من هذه الوضعية التي كانت تنبئ بقرب نهاية مقاومة المغاربة تحددت عملية الجهاد بأشد ما يكون من الحماس والحدة. والواقع أن احتلال فاس، وعقد اتفاقية الحماية مارس ١٩١٢، قد أثار حمية المغاربة للجهاد وخاصة لما انتفضت طوابير الجيش المغربي ضد ضباطها الفرنسيين في أبريل ١٩١٢[٣].

وازداد حماس القبائل للجهاد في الشمال والجنوب لما بويع الشيخ الصحراوي أحمد الهبة بن ماء العينين أميرا للجهاد بسوس غشت ١٩١٢ بعد شيوع أخبار تنازل مولاي عبد الحفيظ أو قتله من طرف الفرنسيين[٤].

وفي هذه الظرفية تصاعدت حركة الجهاد بالأقاليم الصحراوية وانسحبت فرق عديدة من القبائل التي كانت قد هادنت المحتلين نحو الشمال لتنضم إلى المجاهدين. وألقى الفرنسيون القبض على أمير أدرار ولد عيدة بتهمة التواطؤ مع المجاهدين بعد الاتفاق مع الفرنسيين على الخضوع.

---

[٢] علال الخديمي، "حادث أكادير والعلاقات المغربية الألمانية، ندوة أكادير الكبرى : المحور التاريخي؛ "حملة فاس ١٩١١، المقاومة والانعكاسات الدولية"، ندوة المقاومة في المنطقة الوسطى الشمالية، فاس، ١٩٥٥.

[٣] بلحداد، مصدر سابق، ص. ١٩٩

[٤] نور الدين أسريدي، مصدر سابق.، ص. ٢٦٩

د- معركة لبيرات ١٩١٣ :

واستجابة لهذه التطورات تزعم الأغظف بن ماء العينين بتنسيق مع أخيه أحمد الهيبة، حركة كبيرة من المجاهدين من قبائل وادي الذهب والساقية الحمراء. وقد حاصرت هذه الحركة قوة فرنسية كان يقودها الضابط (Martin)، وقضت عليها واستولت على جميع أسلحتها وجمالها وذخيرتها[١]

وقد أثارت هذه الواقعة ضجة داخل فرنسا. وإثرها نظم الفرنسيون حملة عسكرية قوية كان هدفها سحق القبائل بوادي الذهب والساقية الحمراء[٢].

دخلت الحملة الفرنسية بقيادة موري (Mouret) وادي الذهب قرب كتلة زمور. كما دخلت الساقية الحمراء لكنها لم تصادف إلا الفراغ. وعندما وصلت إلى مدينة السمارة وخربتها، واضطرت إلى التراجع جنوبا بعد أن لاحظت أحشاد المجاهدين حواليها. ولم يلبث القتال أن نشب بين القوة الفرنسية والمجاهدين في معركة شرسة تواجه فيها الجانبان بالسلاح الأبيض احيانا.

وقد أسفرت معركة وادي "تكلعيت" أو معركة سمارة (١ دجنبر ١٩١٣) عن استشهاد حوالي ١٠٠ صحراوي وخسر الفرنسيون حوالي ٦٢ بين قتيل وجريح حسب الرواية الفرنسية[٣].

---

[١] جيليي ، التوغل ،ص٢٦٠

[٢] قارن أسريدي نور الدين، مصدر سابق.، ص. ٢٨٠.

[٣] جيليي ،مصدر سابق، ص٢٧١

ثانيا : حركة الجهاد في المرحلة الثانية

١- الجهاد الصحراوي خلال الحرب العالمية الأولى :

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى، أصبح المجال الصحراوي من شنقيط إلى سوس بخاصة، والمجال المغربي بصفة عامة مسرحا للدعايات المتصارعة للحلفاء ودول المحور.

فمن جهة حاولت ألمانيا إثارة ثورة عامة في المغرب ضد فرنسا، وفي شمال إفريقيا عامة، وقد استخدمت في سبيل ذلك كل ما لديها من اتصالات وعلاقات مع زعماء مغاربة. وصرفت الأموال وقدمت السلاح. وقد استفاد المجاهدون المغاربة من العون المادي والمعنوي الألماني، خاصة لما دخلت تركيا الحرب بجانب ألمانيا في أكتوبر ١٩١٤. والملاحظ أن الدعاية الألمانية القوية، والنشاط السري للمخابرات الألمانية[١] لم يتوج بنزول عسكري في سواحل المغرب الشمالية أو الجنوبية، كما كان منتظرا. وكان بالإمكان، كذلك نجاح نزول ألماني في سواحل الصحراء بالتنسيق مع المجاهدين لو قدمت الأسلحة الثقيلة. ولكن يبدو أن الألمان انشغلوا أكثر بالتدخل في ليبيا لتهديد الوجود البريطاني في مصر. وبذلك غامروا في منطقة قريبة منهم بعيدة عن تهديد الوجود الفرنسي بالمغرب.

ولم تقف فرنسا مكتوفة الأيدي، بل جندت بدورها – كل ما ليدها من قوة عسكرية وبشرية بالمغرب لمراقبة السواحل المغربية وإحباط الدعاية الألمانية، وهكذا دفعت المتعاونين معها، إلى نشر فتاوي مضادة للدعاية التركية والألمانية

[١] نور الدين أسريدي، مصدر سابق ،ص٢٨١

"فتوى الشيخ سعد بوه. والشيخ سيديل بابا)، كما عمل الفرنسيون على استمالة الرحل فلم يحاربوهم ولم يمنعوهم من انتجاع الأقاليم الواقعة شمال نهر السنغال[٢].

وقد مارست فرنسا ضغوطا متوالية على الحكومة الإسبانية، واتهمتها بتسهيل مهمة ألمانيا في المغرب، خاصة لما تمت اتصالات بين عملاء ألمان وزعماء الجهاد المغاربة في شمال المغرب وفي سوس وسربت الأموال الألمانية إلى المغرب، وهكذا بدأ نوع من التنسيق بين الفرنسيين والإسبان في السواحل الصحراوية، واشتد ضغط الفرنسيين على حركة الجهاد بسوس بزعامة أحمد الهبة، ودفعت فرنسا بالقواد الكبار الكنتاوي والكلاوي إلى بذل أقصى الجهود للقضاء على المجاهدين. وأشهر الحملات قادها الضابط الفرنسي دولاموط (De la Mothe) سنة ١٩١٧ رد على هزيمة القائد حيدة أميس الذي قتله المجاهدون وكان من أقوى أعمدة السياسة الفرنسية بسوس[١].

وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى، عرفت حركة الجهاد الصحراوية بعض الهدوء. ثم استؤنف الجهاد في كل أنحاء المغرب ابتداء من ١٩٢١.

[٢] نور بلحداد، مصدر سابق، ص٢٠٠

[١] نور الدين أسريدي، مصدر سابق ،ص٢٨١

٢- حركة الجهاد ١٩٢١-١٩٣٤ :

عرفت حركة الجهاد بالأقاليم الصحراوية خلال الفترة الممتدة من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٤، عدة تحولات، ويمكن التمييز بين فتريتين :

الأولى من ١٩٢١ إلى ١٩٢٦، والثانية من ١٩٢٧ إلى ١٩٣٤ أي السنة التي تمكنت فيها قوات الاحتلال من فرض مراقبتها على مجموع المغرب.

- فخلال الفترة الأولى تميزت حركة الجهاد بنوع من الحدة، حيث كثرت الاشتباكات وتعددت المعارك بشكل يسمح بنا بالقول إن حركة الجهاد بعد الحرب العالمية الثانية، تحولت في الأقاليم الصحراوية إلى حرب استنزاف طويلة الأمد ضد المحتلين الفرنسيين.

وهكذا بدأ المجاهدون ينظمون غزوات كبيرة تنطلق من مراكز بعيدة في جنوب سوس أو الساقية الحمراء أو من وادي الذهب وتهاجم المحتلين في أدرار وفي الترارزة وفي تكانت، وأحيانا في الحوض والأزوارد. وقد اشتهر خلال هذه الفترة زعماء قادوا حملات أشهرهم محمد تقي الله المعروف بوجاهة، وإسماعيل ولد الباردي ومحمد المامون وأحمد ولد حمادي وغيرهم كثير. ولقد خاض هؤلاء المجاهدون معارك عديدة كبدوا خلالها الفرنسيين خسائر فادحة في الرجال والأموال، وغنموا خلالها الأسلحة وبهائم النقل والركوب[١] وأشهر المعارك التي قادها أولئك الزعماء هي على سبيل المثال لا الحصر :

[١] نور الدين بلحداد، مصدر سابق، ص٢٨١

*- معركة أشريريك وقعت يوم ٢٨ نوفمبر ١٩٢٣ قادها وجاهة وسحقت خلالها قوة فرنسية بقيادة الضابط Bedrines[٢].

*- معركة بوكرن في ٥ ماي ١٩٢٤ استشهد خلالها الوجاهة.

*- معركة لقديم في ٢٣ أكتوبر ١٩٢٤ قادها إسماعيل ولد البارودي وأحمد ولد حمادي وأتباع الوجاهة والوالي بن ماء العينين وانتصر فيها المجاهدون[١].

*- معركة رأس الرمت قادها ولد المامون. وانهزم فيها المجاهدون في يوليوز ١٩٢٥.

*- معركة الطريفية أبريل ١٩٢٦. دامت حوالي ثلاثة أيام وهي من أكثر المعارك دموية، وقد شاركت فيها كل القبائل الصحراوية وتميز فيها الرماة من الرقيبات بمهارتهم في التصويب[٢].

إن هذه المعارك قد بينت الجهود الجبارة التي بذلها الصحراويون دفاعا عن وحدة بلادهم واستقلالها، كما يمكن أن نعتبرها من آكد الشواهد على الالتحام الذي كان يجمع بين المغاربة آنذاك، فكل الغزوات كانت تهيأ في الأقاليم الصحراوية الشمالية بمساندة مادية ومعنوية من المغاربة في الشمال والوسط والجنوب، وبالفعل لقد ربطت التقارير العسكرية الفرنسية هذه المعارك بما كان يجري في الشمال وسوس من صراع بين المغاربة والإسبان والفرنسيين وردت

[٢] جيليي ، التوغل في موريتانيا،ص٢٩٢

[١] جيليي ،التوغل

[٢] م.ن ،ص٢٩٥،ص، ٣٠٤.

أسباب تصاعد حدة المقاومة إلى تشجيع محمد بن عبد الكريم الخطابي، للمجاهدين بالدعاية والمال والسلاح الذي غنمه من الإسبان[٣].

كما أشارت التقارير الفرنسية، إلى ظهور جمعيات إسلامية عملت على تحيري البلدان الإسلامية في شمال إفريقيا كلها منها :

"عصبة تحرير الأهالي في مستعمرات إفريقيا"، تأسست سنة ١٩٢٤ بموسكو و"لجنة مستقبل الإسلام" تأسست بدورها سنة ١٩٢٤ بكونيا (Konia)[٤].

وقد ألحت كل التقارير العسكرية على ضرورة التنسيق بين الجيوش الفرنسية المحتلة للجزائر والموجودة بمراكش وبالأقاليم الصحراوية. وهو الأمر الذي تم سنة ١٩٢٥ عندما عقد مؤتمر بين قيادات هذه الجيوش في مدينة مراكش في ١٦ يناير وقرر القيام بأعمال مشتركة ومنسقة ضد القبائل الصحراوية. وكان الهدف هو قطع كل الإمدادات الآتية من وسط المغرب والتضييق على حركة الجهاد[١].

أما في المرحلة الخيرة الممتدة من ١٩٢٧ إلى ١٩٣٤ فنلاحظ ان حدة المعارك قد خفت، ويفسر ذلك التطور بالتضييق الذي مارسته فرنسا وإسبانيا على حركة محمد بن عبد الكريم، التي أنهيت باستسلامه سنة ١٩٢٦، وبتوغل الجيوش الفرنسية فيالتخوم الجزائرية ومن مراكش نحو الجنوب الصحراوي،

---

[٣] م.ن،ص، ٣٦٣.

[٤] م.ن ، ص٣٣٧.

[١] جيلبي ،التوغل ، ص. ٣٣٩-٣٥٠.

حيث حاصرت المجاهدين بتافيلالت ودرعة والساقية الحمراء، وفي الوقت نفسه تمنكت إسبانيا من تركيز وجودها في السواحل الصحراوية، واذخلت قوات جديدة وأسلحة عصرية كالطائرات. كما سمحت للفرنسيين بملاحقة القبائل في وادي الذهب والساقية.وإذا أضفنا لهذه التطورات، ما أصاب الأقاليم الصحراوية من جفاف وخاصة سنة ١٩٣٣. فإننا نفهم لماذا تحولت كثير من الهجمات الجهادية إلى غزوات هدفت إلى قتل الرجال ومصادرة الأموال. وقد أصابت هذه الغزوات الفرنسيين والقبائل الصحراوية الخاضعة لهم على السوء.

وبعد معارك شهيرة وقعت سنة ١٩٣١ و ١٩٣٢ خاصة، تراجعت حركة الجهاد وانتهى الفرنسيون بأن أخضعوا لنفوذهم الرحل كما أخضعوا حركة الجهاد في وسط المغرب وتافيلالت وسوس والجنوب الصحراوي. وقد تميزت المرحلة الأخيرة من حركة الجهاد بقتل الفرنسيين للأمير أحمد ولد عيدة سنة ١٩٣٢ بتهمة الإستمرار في مساندة المجاهدين. وكانت آخر المعارك هي التي خاضعها مجاهدو أولاد الدليم في مركز أطار في ٨ يناير ١٩٣٤.

خاتمة :

هكذا نكون بعد هذه النظرة الموجزة، قد تعرفنا على الخطوط العامة للمقاومة الصحراوية ضد الاحتلال الفرنسي بين ١٩٠٥ و ١٩٣٤ وقد تبين أن تلك المقاومة كانت وطنية أي مغربية ضد الاحتلال الأجنبي.

إن الفوارق المحلية والصعوبات الجغرافية والجيوسياسية، لم تكن إلا لتزيد المغاربة آنذاك تكاملا وتواصلا وتوحدا ضد الأخطار الخارجية. إن المغاربة جميعا كانوا يصدرون من معين واحد هو الإسلام، ومن رغبة عظيمة في الدفاع عن كرامة الإنسان المغربي المعتز بكيانه الحضاري الشامخ في التاريخ.

وخير ما نختم به هذه الخاتمة القصيرة، جزء من رسالة بعثها البطل الصحراوي المجاهد بكار ولد سويد أحمد إلى أحد قادة جيش الإحتلال، في ٢٠ يناير ١٩٠٤ يقول فيها :

أما بعد، فمن بكار ولد سويد أحمد، أمير تكانت إلى صاحب النصارى في قرية كهيدي موجبه بلغ النصارى مني أن المسلمين من مغربها إلى مشرقها أمرهم واحد ودينهم واحد وما هم إلا كالجمع الواحد ... وردت عليهم كتب القبائل من كل ناحية في أمرهم ووردت عليهم كتب مولانا السلطان المنصور مولاي عبد العزيز ... فالآن كفوا عن المسلمين ولا تعتدوا ببناء ولا غيره ... واعلموا أن أرض المسلمين ليست لأحد منهم يختلي بها دون الآخر. ولا يعطيها إلا سلطان العامة واتفاق المسلمين. فبهذا فكفوا ... وإلا فقد تعرضتم لنقض العهد ولا يخفى ما فيه[١].

المصادر

١- جيليي ،التوغل في موريتانيا ،ترجمة محمد ولد حمينا ،دارالضياء ، (المغرب ،١٩٩٠).

٢- علال الخديمي، التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب ١٨٩٤-١٩١٠. نشر إفريقيا الشرق، الدارالبيضاء، الطبعة الثانية.(المغرب ،١٩٩٥).

[١] نور الدين أسريدي، مصدر سابق،ص٢٨٦.

٣- علال الخديمي، حادث أكادير والعلاقات المغربية الألمانية، ندوة أكادير الكبرى : المحور التاريخي؛ حملة فاس ١٩١١، المقاومة والانعكاسات الدولية"، ندوة المقاومة في المنطقة الوسطى الشمالية،(فاس، ١٩٥٥).
٤- علال الخديمي، الشيخ ماء العينين ومقاومة التدخل الفرنسي بالمغرب ١٨٨٤-١٩١٠. مجلة دراسات، كلية الآداب بأكادير ١٩٨٧، العدد الأول.
٥-علال الخديمي، مجلس الأعيان ومشروع الإصلاحات الفرنسية بالمغرب سنة ١٩٠٥ في ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي خلال القرن التاسع عشر، ١٩٨٣، نشر كلية الآداب والعولم الإنسانية بالرباط، ١٩٨٦.
٦- محمد الشيخ الطالب اخيار، صفحات من دفاع المغاربة عن السيادة والوحدة الترابية ما بين ١٩٠٠-١٩١٣، نماذج من الصحراء المغربية؛ ندوة المقاومة المغربية ضد الاستعمار، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، (اكادير، ١٩٩١).

٧- نور الدين أسريدي، مساهمة في دراسة تاريخ موريطانيا، رسالة دبلوم دراسات عليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية،(الرباط، ١٩٩٠).
٨- نور الدين بلحداد، التسرب الإسباني إلى شواطئ الصحراء المغربية (١٨٦٠-١٩٣٤)، دبلوم دراسات عليا، كلية الآداب والعلوم الانسانية (الرباط، ١٩٩٤).